تحت إشراف عبد الحق عزوزي

القبول بالتعددية الثقافية والحوار الحضاري

فهرس الموضوعات

تقديم

بقلم حامد بن أحمد الرفاعي 7

مقدمة

أصول الحوار ومقوماته، بقلم عبدالحق عزوز 11

القسم الأول: أصول ومعوقات القبول بالتعددية الثقافية والحوار الحضاري 45

لماذا الحوار ؟ وكيف؟

عباس الجراري 47

أصول الحوار في الإسلام

محمد الكتاني 53

الأديان والعلاقات الدولية

بيير ميشيل لولان 119

معوقات السير الحضاري في حياة الأمم

حامد بن أحمد الرفاعي 131

القيم الإنسانية المشتركة

محمد علي التسخيري 169

حضارة واحدة وثقافات متعددة
برهان غليون 185

ديانة الآخر
فهمي هويدي 195

القسم الثاني: الحضارات، الثقافة والسياسة من منظور الشرق والغرب 209

إشكالية حوار الحضارات: التعارف قبل التحاور
حسن عزوزي 211

تجاوز «حوار الثقافات»:
أهمية و محدودية المعالجة الثقافية للعنف السياسي
فرانسوا بورجا 225

الإسلام الكوني: بين الأصولية والكونية
جوسلين سيزاري 243

فخ الخصوصية: في نقد ثنائية الغرب والإسلام
عبد الله السيد ولد أباه 265

صدام الـتـمـثـلات
سيلين ليزني 275

الثقافة والسياسة من منظور الشرق والغرب
خيما مارتين مونيوث 291

سابقة في الحوار بين الإسلام والمسيحية بالمغرب
محمد العربي المساري 297

الحوار بين الحضارات -مساهمة الإسلام في الحضارة الغربية
أبو عمران الشيخ 303

الحوار الحضاري وسؤال الهوية
سمير بودينار 311

القبول بالتعددية الثقافية كمدخل للحوار بين الحضارات
رضوان زيادة 325

التراجم 345

فهرس الموضوعات 357

مقدمة:
أصول الحوار ومقوماته

بقلم عبدالحق عزوزي

أصبح مفهوم الحوار بين الحضارات والثقافات من المفاهيم والمواضيع الأكثر تداولا في السنين الأخيرة بسبب غيوم الظلام والأزمات التي طبعت عصرنا الملبد بالصراعات الاجتماعية والدينية والثقافية، ولما أخذه من تعاريف تجاوزت كثيرا دلالته المعجمية المعروفة، كما زاد من حدة الاعتداد به ضرورة الرجوع إليه كأسلوب للتعارف والتقارب وإصلاح ما شاب الأفكار والنظريات من اعوجاج في الحكم والتقييم.

إن المجتمعات في ظل تنامي العولمة تتقاسمها مخاوف متشابهة ومتباينة، وتسعى جاهدة لإعمال كل طاقاتها القانونية والمؤسساتية لمعالجتها أو لاستباقها. فمن هجرة منظمة وسرية من دول الجنوب إلى دول الشمال، وكل التداعيات الأمنية التي تطرحها في دول الاستقبال والأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي دعت إلى ذلك في دول الجنوب، إلى إرهاب عابر للقارات والحدود، مرورا بالصراعات والحروب التي تودي بحياة الآلاف من البشر في فلسطين المحتلة والعراق وأفغانستان والعراق، كلها عوامل غذت جذور اللاتفاهم والتنافر بين الشعوب والأمم وأضحت تنمي أغصان الكراهية والشنآن وتولد نظريات التشاؤم والمخاوف المتتالية.

لقد غدا العالم قرية صغيرة في ظل السلطات الجديدة للعولمة وأصبح للأفكار الرائجة مغزى وأبعاد وانعكاسات مباشرة على العديد من الأمم والقارات، فالرسوم الكاركاتورية الدانماركية المشوهة للرسول المصطفى محمد (ص) والتي أثارت ردود فعل عنيفة من الدول الإسلامية والكلمات المغلوطة حول الإسلام التي عبر عنها

البابا بونوا 16 في محاضرة ألقاها في جامعة راتسبون سنة 2006، كلها أحدثت في الدقائق التي تلت صدورها انعكاسات مباشرة في العديد من الأقطار والشعوب وغليانا شعبيا كبيرا لا يفتأ يكبر إذا لم تخمد المسببات في إبانها. هذا من جهة. ولكن الداهية العظمى والمصيبة الآزفة والطامة الكبرى التي ليس لها من دون الله كاشفة هي تلكم الرواسب والتراكمات الخاطئة والأفكار المسبقة التي تقبع في أذهان الناس والتي لا تفتأ تنمو وتترعرع مع الأحداث التي تعج في الساحة الدولية.

أعطي مثالا حيا على ذلك. درست في الجامعة المغربية إلى حدود الإجازة ثم أكملت تعليمي العالي في الجامعة الفرنسية، ومن بين المواد التي درستها في كلتا الجامعتين نظريات العلاقات الدولية ومن بينها نظرية «صدام الحضارات» لصامويل هانتنغتون، وهي كما سنرى فيما بعد نظرية خاطئة ومغرضة لعدة أسباب، وكل مقالات هذه الأجزاء الخمسة تذهب في هذا الاتجاه، ولكن ما يهمني هنا هو مدى تجاوبي أنا وزملائي الطلبة المغاربة في الجامعة المغربية والطلبة الفرنسيين والأجانب في الجامعة الفرنسية أثناء دراستنا لها. هناك تباين جلي في التلقي والتجاوب، فالطلبة المغاربة احتكموا بصورة حقيقية ومرضية إلى واقع الحضارة العربية والإسلامية أثناء تلقيهم من الأستاذ المحاضر لجوانب هذه النظرية، أما الطلبة الفرنسيين والأجانب (ما عدا الأفارقة والأسيويين منهم) فقد احتكموا إلى النظرية كما هي بل وغذوها أيضا انطلاقا من نظريات مشابهة لها وبقوا في هذا الحد من الفهم دون الغوص في خبايا التاريخ وعلم الاجتماع والحضارة لبناء نقد ذاتي لنظرية رغم بساطتها لها من النتائج على الفكر والنظرة إلى الآخر ما ليس لغيرها، وإذا دخلت في حديث فكري معهم وجدت نظرتهم إلى الحضارة العربية والإسلامية نظرة محقرة، وإذا بحثت معهم فوق الحشائش وتحت الحشائش فلن تجد علما ولو بسيطا بتاريخ وواقع الحضارة العربية والإسلامية، بل مجملها سطحيات تفند بواقع العلم والحقيقة، والأدهى أن نظراتهم

تغذى بإسقاطات على وقائع ليس لها لا مرجع ولا أصل منصف، وما زلت أتذكر يوما سألت أستاذا من أصول ألمانية توماس ليندمان Thomas Lindeman وهو من كبار منظري العلاقات الدولية في الجامعات الأوربية عن جدوى إدراج نظرية هانتنغتون في مادة السلك الثالث وفي هذا المستوى من التعليم لأن هانتغتون لا يمكن عده من منظري العلاقات الدولية ولا نظريته تصلح لأن توضع كند مع نظيراتها في العلاقات الدولية، فكان من إنصاف هذا الأستاذ أن ساندني الرأي ولكن دون الخوض معي ومع زملائي عن ماهية إدراجها ضمن المقرر. نعم إنه الجهل العميق بالواقع، والتراكمات المغلوطة التي تخلق صورا مشوهة حول الآخر، والعينة التي أخذتها هي عينة الطلبة ذوي كفاءة كبيرة في الحكم والنقد وعلى مستوى كبير من العلم وذوي الاختصاص في المجال، فما بالك بالرجل الغربي العادي الذي لا يتغذى فكره إلا بوسائل الإعلام، وكم هي صائبة كلمات صاحب جائزة نوبل في الكمياء لسنة 1999 الأستاذ أحمد زويل عندما قال: «إن الغرب قلما يتذكر، بصفة عامة، الدور الأساسي الذي لعبته الحضارة الإسلامية، والتي كان يتواجد أحد مراكزها بإسبانيا، التي كانت فيها أوروبا نفسها تهيم في عمق التخلف، وأنا أشك في أن الناس، في شوارع نيويورك أو لوس أنجولس أو لندن أو باريس، يعرفون اليوم مدى تقدم الحضارة الإسلامية في ذلك العصر. لقد قدمت هذه الحضارة للعالم، معارف جديدة في مجال العلم والفلسفة والأدب والقانون والطب وغريها من المجالات (...) ويراودني الشك كذلك، في كون الناس يتذكرون أن التسامح قد كان من المميزات السائدة في هذه الحضارة، ذلك أن فترة أوج الحضارة الإسلامية هي الفترة التي عاش فيها المسلمون واليهود والمسيحيون جنبا إلى جنب في سلام، بإسبانيا وببلدان أخرى من العالم الإسلامي[1]».

[1] انظر: Ahmed Zewail, « Dialogue des civilisations, Faire l'histoire grâce à une nouvelle vision du monde» in science et quête de sens, Ed. Press de la Renaissance, Paris, 2005.

وأنا لست هنا في وارد إلقاء اللوم على الغرب وحده لجهله الكبير بالآخر المسلم، فالعكس في بعض الأحيان صحيح، ولكن العالم الإسلامي محاط اليوم بشتى أنواع الإكراهات في علاقته بالغرب؛ والإسلام الذي هو أصل عقيدته وقوام هويته متهم في الأذهان الغربية بكونه دين الغلو والتطرف والإقصاء بل وحتى الثقافة العربية- الإسلامية متهمة على كونها تميل إلى التقليد المحبط وتغذي خصوصياتها الحضارة العربية والإسلامية، وهي المرجع الرئيسي حسب زعمهم لحركات الإرهاب في العالم. وعلى الإنسان المنصف الذي يريد أن يحكم على الواقع أن يتجرد من هذه الأحكام المغلوطة ويرجع إلى الأصل المستبين للحضارة العربية والإسلامية والدين الإسلامي. والمشكلة هنا أن تلك الرواسب الخطيرة في الذهنية الغربية، تستند أيضا إلى فعل بعض المسلمين أنفسهم الذين ليس لهم أية دراية بالرسالة الحقيقية للإسلام، فلا واقعهم ولا تصرفاتهم تومئ إلى شيء من الإسلام.

وهنا لا بد من الإشادة بالكثير من المنصفين من علماء الغرب في حق الإسلام والمسلمين، وتزخر هذه المجلدات الخمس ببعض من كتاباتهم القيمة، فتجد الأب بيير ميشل لولون وهو في صدد الرد على محاضرة البابا آنفة الذكر «فرجل كالبابا بونوا 16، الذي أكن له تقديرا كبيرا، يبدو أنه نسي يوما هذا المطلب - أي من أجل أن ننشئ علاقات عادلة وهادئة بين المسيحيين والمسلمين يجب على المسيحيين أن يتكلموا عن الإسلام بشكل يجعل المسلمين يتعرفون على أنفسهم في ما يقال، ويجب على المسلمين أن يتحدثوا عن المسيحية بشكل يتعرف فيه المسيحيون على أنفسهم في ما يقال عن عقيدتهم - ففي المحاضرة التي ألقاها في جامعة راتسبون سنة 2006 تحدث عن العلاقة بين العقل والإيمان في الإسلام بمصطلحات لا تطابق ما يعتقده ويقوله

وانظر ترجمة هذه المقالة في العولمة وحوار الحضارات والثقافات، مجلة عالم التربية، رقم 17، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2007، ص 191.

المسلمون»، كما نقرأ في صفحات هذه المجموعة، المقالة القيمة لفرنسوا برجات «إن الإصرار الممنوح للسجل الثقافي يساهم كآلية تحجب المسببات للتوترات، وبالتالي فإنها تؤيد في الغالب توزيعا أحاديا للمسؤوليات، «أمراض» ثقافة الآخر التي تكفي لتفسير صعوبات تعايشنا معه» وهو يشير بذلك إلى المشكل الفلسطيني الإسرائيلي حيث إن الدولة العبرية تشير بأصابع الاتهام إلى الثقافة العربية والإسلامية كعامل محدد في تفسير سياسات التنكيل والقتل في حق الشعب الفلسطيني ومن ثم طول الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية.

إن هذا النوع من التحليل الأكاديمي الصادق المتحري للحقيقية والإنصاف هو الذي بإمكانه أن يخلق طرقا مثالية للتعارف والحوار البناء، إنه لا يقف في حدود السطحيات ولا يبنى على تفاهات تتقاولها وسائل الإعلام أو يروجها أناس لهم حقد دفين ضد الآخر الذي له دين مختلف وخصوصيات ثقافية مغايرة، إنه المستوى اللائق بذوي العقول الحصيفة التي تبحث عن الحقيقة في كل مظانها وتنبذ الأباطيل والترهات وتسعى إلى الإنصاف.

لنرجع إلى فرنسوا بيرجات في معرض حديثه في هذا الجزء عن الأساليب الكاذبة لبعض مروجي مبدأ الحوار، وهم من خلال ذلك يسعون إلى تبرير سياساتهم وإعطائها الغطاء الفكري الضال والمضل: «فثقافة «التغيير» التي جرى الترويج لها في الندوات والملتقيات بالعواصم الغربية أو العربية في مطلع هذا القرن، تهدف قبل كل شيء إلى ترقية ثقافة الحوار والتغيير للمعارضين المتمردين إلى حلفاء خاضعين. ومن خلال أبعادها بعدم إدراج عنف «الدول» في مجال تدخلها، تبدو أداة الحوار الثقافي مخصصة للتنبؤ، بشكل خاص، بالعنف الموجه ضد الدول، وبالتالي إلى التصدي إلى المقاومات التي ليست بالضرورة غير شرعية لعدم مسايرة النظام السياسي الدولي. وإذا كان الفاعلون الرسميون يحبون القول «يحيا الحوار»، يبدو أن مرد ذلك عدم رغبتهم قول «يسقط الاحتلال». وإذا

كانوا يفضلون الخوض في «الثقافة»، فإنهم يفعلون ذلك حتى لا يقولوا بشكل بذيء «بترول»، «حدود» أو غيرها من «المصالح»، وحتى لا يأخذوا بعين الاعتبار نتائج سياستهم الخارجية أو سياسات حلفائهم».

وهذا المنهج التحليلي هو الذي يتوصل من خلاله إلى كشف اللبس بتقرير الحجة وإظهار الحق، ويبلغ ذروة التحقيق في الإحاطة بشروط البرهان لأنه مدعوم بالعقل والاستدلال، ومن هنا يمكن أن ينطلق الحوار، ليس بين الحضارات والثقافات، ولكن بين ممثلي تلك الحضارات والثقافات، لأن الحضارات والثقافات كيانات معنوية لا تتحاور فيما بينها، فأصحابها انطلاقا من الموروث الحضاري والثقافي عندهم هم الذين يتحاورون، وهم لوحدهم بإمكانهم رسم منهج للحوار لرفع كل غواشي التنافر والصراع الناجم عن اللاتفاهم والتعصب والانغلاق، وللدخول في نقاش وتداول للآراء، ووضع حد للصراع أو القطيعة بينها.

فالمغزى العام من مقالة الأستاذ فرانسوا بيرجات هو التحذير من كبوات الحوار بين الثقافات والحضارات كما يطلقها أناس من صلب بيئته الغربية لإلقاء اللوم على المنتهكة حقوقهم وتبرئة ذوي البطش من الغرب كإسرائيل مثلا في حق الفلسطينيين؛ وانتهاج هذا النوع من الاستدلال العقلي المحكم هو الذي يعطي للحوار كمفهوم للتقريب والتسامح مع «الآخر» مدلولا منهجيا محكم القواعد والأصول، فالتعقل ونقد الذات والإلمام بالموضوع الذي يجري الحوار حوله وتحديد إطاره العام لتحديد مساره ومعرفة كل محاور لصاحبه هي مرتكزات موضوعية يجب أن تتوافر في المحاورين قبل الدخول في الحوار، وهي الشروط التي تجعل ممارسته صائبة وخالية من كل ما يعوق بلوغ الهدف والإقناع بوجاهة الرأي المخالف واحترام أصحابه. إذ كيف يمكن أن يتفاهم فلسطيني وفرنسي مثلا يدرسان معا في جامعة أوروبية حول قضايا جوهرية تتعلق بالإسلام واليهودية وسبل التعايش فيما بينهما انطلاقا من الواقع الفلسطيني الإسرائيلي إذا لم يع

الأستاذ الفرنسي حقيقة الاحتلال الإسرائيلي ومعاناة الانسان الفلسطيني أكثر من نصف قرن من الزمان حيث شرد وطرد من أرضه وغصبت حقوقه ونكل بأهله، وإذا قاوم الطفل الفلسطيني بحجارته المحتل الإسرائيلي، اتهم هو ديانته بالإرهاب والغلو والتطرف، وإذا امتنعت إسرائيل عن إنشاء الدولة الفلسطينية، أجيب بأن ممثلي الشعب الفلسطيني ليسوا جديرين بأخذ زمام الحكم، وإذا فتحت قنوات الحوار في مجال الحضارات والثقافات ألقت اللوم على الثقافة والدين الإسلامي لإعطاء حصانة فكرية لسياستها التنكيلية والاستعمارية.

كثيرون هم من يفضلون السكوت مع زملائهم في الجامعات الأوروبية والأمريكية لأنهم يعرفون أن في مخزونهم الفكري نقصا علميا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون للحديث معهم معنى ولا للحجة مقصد، فالمتعرض لذلك مهين لنفسه والداعي إليه مع علمه بقصور خصمه جائر عليه كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، والمصيبة الكبرى أنه في هذا النوع من المخاطبين أناسا يستشهدون لك ببرناد لويس وصامويل هانتنغتون لإزالة قيام الإسلام والحضارة الإسلامية على ثقافة الحوار وترسيخ التعايش بين الثقافات والأديان، وبكتاب من داخل المجتمع العربي الذين تحالفوا معا على تفويض دعائم سماحته.

هذا هو كنه إصدارنا لهذه الأجزاء الخمسة حول الحضارات والتنوع الثقافي وهو في الأصل مؤتمر دولي حاشد عقد بمدينة فاس، وبناء على وحدات موضوعية ومحاور منهجية، أغنانا المشاركون، زيادة على تدخلاتهم في المؤتمر، بمقالات قيمة وموضوعية وكلها تتلخص في طلب الحق وعدم استنكاف الخضوع له كما قال الإمام الغزالي، والمشاركون في هذه الأجزاء الخمسة كتاب ومفكرون مرموقون من القارات الأربع ومن شوارب حضارية وثقافية مختلفة، فتجد فيهم رجل الدين ورجل السياسة ورجل الفكر والجامعي الأكاديمي والصحافي المتميز والدبلوماسي المحنك، أغنونا بأفكار

وتجارب ذاتية، واحتكموا إلى العقل الرشيد لدراسة مواضيعهم، وكل المشاركين لهم معرفة تامة بجوانب الموضوع، يستندون إلى دلائل واستشهادات تعزز موقف كل منهم، مستقاة من الأصول والفروع حتى لا تتداعى الخواطر وتنقص المرتكزات الموضوعية، فهناك منهج واحد فرض على كل الكتاب، هو الالتزام بالموضوعية بحيث يتغاضى الكاتب عن انطباعاته الذاتية أو المعلومات الشائعة أو المشهورات التي تتداول في وسائل الإعلام باعتبارها حقائق أو مسلمات، فضلا عن التمرد من النزاعات والأهواء الطائشة والعواطف المغرضة، ولأن الموضوعية كما يكتب الأستاذ الجليل محمد الكتاني: «تعني التجرد من كل الآراء المسبقة، وتعني اعتماد الدلائل العقلية أو التجارب المادية أو الأخبار الموثقة، والتاريخ المحرر علميا، والتقييد بالموضوع، والاحتراس من تعميم الأحكام وتجاهل نواحي الضعف والخلل في الرأي المأخوذ به، والخلط بين الرأي والذات الآخذة به».

إن الحقيقة لا تتجلى إلا بالتمحيص والمراجعة والبرهان، كل ما كتب برنارد لويس وصامويل ها نتنغتون هي نظريات وأقاويل وشبه كتبت بالمداد، ودفع الشبه وقوادح الأدلة الأخلاقية ترد بالبراهين العقلية والحوار الرصين بعيدا عن اللجاج والمكابرة واعتماد الآراء المشهورة من غير تمحيص، وهذه المغالطات هي في نظري الحافز الأول على التأليف فيه والإسهام في تفعيل آلياته خلافا لمن يدعي أن عقد المؤتمرات أو الكتابة فيه مضيعة للوقت، فالحق يضاد الخطأ ولا يوافقه ويشهد ضده، فكيف إذن يمكن الرد على ذلك الجامعي الفرنسي أو نغني فكر أولئك الطلبة الأوروبين وهم يدرسون نظريات العلاقات الدولية إذا لم نغن الساحة الفكرية بمنتوجات تكشف عن مواطن الزلل في الفهم والتحريف للوقائع لمن لا يدركون مراميها، فأخطاء الفكر وكبواته وتصوره في إدراك الكثير مما هو خارج عن أفقه لا يقابل إلا بالفهم والإدراك والمعرفة العقلية الحصيفة المتحرية للحق، فلا بد من إخراجها إلى الواقع تعبيرا وكتابة وتفعيلا، وهذا مظهر صحي للفكر

في القديم والحديث، وهذه هي الثقافة المولدة للحوار خلافا لبعض المؤتمرات والكتابات التي لا تنتهج الموضوعية والمنهجية العلمية في الفكر والإنتاج، فهي صناعة ضائعة غير محكمة القواعد والأصول. إذ من المعلوم كما يكتب الأستاذ محمد الكتاني: «أن المسائل التي يختلف فيها الناس إما أن تكون مما يتعلق بالمعتقدات، أو مما يتعلق بالاجتماعات والعلاقات السياسية والحقوق المقررة. وإما أن تتعلق بالمعارف العلمية المتصلة بالطبيعة والمادة، وإما أن تتعلق بالفلسفات والأنظار الفلسفية. وإما أن تتعلق بالماضي وتراثه، والتاريخ وأحداثه. ومن المعلوم أن لكل صنف من المسائل منهجه الملائم، فهناك المنهج الاستدلالي العقلي، وهناك المنهج التجريبي الطبيعي، وهناك المنهج الاستردادي التاريخي فإذا كان موضوع الحوار تاريخيا كان المنهج التاريخي هو مرجعيته، بما فيه من آليات التوثيق والنقد للنصوص وفقهها، وتمحيص الروايات ومقارنتها، وإذا كان الموضوع دينيا أو اعتقاديا، وجب الاعتماد فيه على المنهج الذي يلائم المسألة المطروحة للحوار، فإذا كانت ترجع إلى الاستدلال العقلي، اعتمد عليه، وإن كانت ترجع إلى فهم النصوص اعتمد فقه النص لغة وسياقا».

هذه جملة من التوجيهات الرشيدة في أركان الحوار الإجرائية وهي ما يقوم عليه من أسس وأساليب وهي ما تتوخاه كل هذه المجلدات الخمس.

حوار أم صراع؟

تشكل المفاهيم والنظريات التي يصوغها المثقفون خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، إنتاجات فكرية لفهم ودراسة الظواهر الدولية، تعرف بسبب شهرة أصحابها والمؤسسات الفكرية أو الجامعية التي ينتمون إليها رواجا كبيرا في الساحة الجيوسياسية. فهكذا تظهر في نظريات العلاقات الدولية أدوات تحليلية ترمي إلى

فهم السياسات الدولية وتحليل الواقع في ظل بيئة دولية معقدة، ومن بين تلك النظريات مقولتا نهاية التاريخ وصدام الحضارات.

أما الأولى فهي لفرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama ظهرت على شكل مقالة صدرت سنة 1989 بالمجلة الأمريكية المصلحة القوميـــة National Interest قبل أن يحولها إلى كتاب يطور فيه أطروحته وأفكاره. فحسب فوكوياما، يعتبر النظام الليبرالي الأفق الأعلى للتاريخ الإنساني بعد سقوط الأنظمة الفاشية والنازية ثم الأنظمة الشيوعية وبقاء الانتصار الكوني للديموقراطية الليبرالية التي تكتسح كل الشعوب، ويقتفي فوكاياما خطوات كانط وهيغل وماركس بوجود تاريخ كوني يجمع ويوحد الإسلام الذي يعتبر معتنقيه كشعوب تعيش خارج التاريخ الحديث وهو الدين الوحيد الذي يطرح النظام التيوقراطي كبديل للنظام الليبرالي؛ ورغم كل جاذبية الإسلام، والمنظومة الأخلاقية التي أتى بها والنسق الاجتماعي والسياسي الخاص به، فإنه لا يملك جاذبية وقبولا خارج العالم الإسلامي. وبعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001 تقوت فكرة فوكاياما باعتبار الدين الإسلامي المنظومة الوحيدة التي تقاوم مبادئ الحداثة والليبرالية: «يبدو أنه يوجد في الإسلام أو على الأقل في الإسلام الأصولي شيء ما يجعل المجتمعات الإسلامية معادية للحداثة. من بين جميع الأنظمة الثقافية المعاصرة، يحتوي العالم الإسلامي أقل عدد من الديموقراطيات ولا يحتوي على أية أمة استطاعت الانتقال من وضع دول العالم الثالث إلى العالم المتقدم[1]» وترك فوكوياما جانبا عناء البحث عن الأسباب الحقيقية التي لم تجعل العالم الإسلامي ينجح في تحقيق النهضة الشاملة، وعلاقة الحداثة والتحديث بالدين والثقافة.

والنظرية الثانية هي «صدام الحضارات» لصامويل هانتنغتون التي أثارت ومازالت تثير سجالات حادة في جميع أنحاء العالم منذ أن نشر المقالة في صيف 1993 بفصلية شؤون خارجية المعروفة بنفوذها

---

[1] انظر: Francis Futuysma, «Nous sommes toujours à la fin de l’histoire», *Le Monde*, 18/10/2001.

وقربها من مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية، وطور هانتنغتون مقالته على شاكلة فرانسيس فوكوياما إلى كتاب صدر عام 1996 حيث نقح فيه أطروحته وعززها بمعطيات جديدة.

ولكن الأطروحة رغم كل مغالطاتها، قد تبنتها العديد من المؤسسات ومراكز الأبحاث في الغرب باعتبار صدام الحضارات صداما حتميا لا مفر منه، وتحدد أوجه هذا الصراع المتحكم في صيرورة العلاقات الدولية، حتى تحولت الفكرة بفعل التنظيم الإعلامي المتزايد إلى شبه أداة لتفسير المرحلة الجديدة والقطيعة التاريخية لما بعد الحرب الباردة. والفكرة الرئيسية لهذه الأطروحة تدور خاصة حول الإسلام وعلاقته بالعالم الجيوسياسي المعاصر. وإن كان هانتنغتون يقسم العالم إلى ثماني مجموعات حضارية: الحضارة الغربية، الأمريكية اللاتينية، الإسلامية، الصينية، الكونفوشيوسية، اليابانية، الهندية، السلافية الأورثونوكية ثم الإفريقية، فالحضارة الإسلامية في نظره هي الحضارة المرشحة لكي تكون الأكثر عنفا وصداما مع الحضارات الأخرى في العالم، وهو بهذا يريد فتح معركة مباشرة مع الإسلام والتنبيه على التهديد المتزايد للإسلام الذي يزحف على أوربا والغرب: «إن هانتنغتون يريد أن ينهي عالمنا إلى حالة صراع... إنه يسعى إلى تدبير مشكلة بين الغرب واللاغرب، وفي هذا السياق هناك اهتمام واضح بالرغبة في فتح معركة مع الإسلام[1]»، وهانتنغتون لا يخرج بهذا عن دائرة بعض الكتاب الغربيين المشهورين خاصة المستشرقين منهم الذين يلوحون في كتاباتهم بعدائهم المباشر للإسلام وللحضارات الإسلامية كبرنارد لويس مثلا الذي صرح في مقالة عنوانها بـ«جذور السخط الإسلامي»: «ينبغي أن يكون واضحا الآن، أننا نواجه شعورا وحركة يتجاوزان كثيرا مستوى القضايا والسلبيات التي تجسدها، ولا يقل هذا عن كونه صداما بين الحضارات، إنه رد فعل غير عقلاني

[1]إدوارد سعيد، «من له الحق في تعريف الحضارات قبل التحدث عن صراعها؟»، *الشرق الأوسط* 1995/02/17.

ولكنه مرتبط بخصم قديم لتراثنا اليهودي المسيحي ولما نحن عليه في الحاضر، وضد توسعهما معا، ومن جانبنا من المهم جدا أن لا نسقط أيضا في رد الفعل غير العقلاني والمتأصل في التاريخ ضد هذا الخصم[1]».

فالمسلمون هنا بمثابة مجموعات لا عقلانية هدفها الوحيد هو تدبير الحضارة الغربية، ويكتب لويس في ختام كتابه: «ما الإخفاق ؟ تأثير الغرب ورد فعل الشرق الأوسط» أنه «إذا ما استمر الناس في منطقة الشرق الأوسط باتباع مسيرتهم الراهنة، فإن الانتحاري الذي يفجر نفسه قد يصبح المحرك لسائر المنطقة، وقد لا يكون هناك مفر من تصاعد موجة الكراهية والضغينة والغضب والإشفاق على الذات...ولو تمكنوا من التخلي عن مواساة أنفسهم والشعور بأنهم ضحايا وحلوا مشاكلهم، وحشدوا مواهبهم وطاقاتهم ومواردهم بأسلوب خلاق ومشترك، فحينها سيكون بإمكانهم مرة أخرى أن يجعلوا الشرق الأوسط في العصور الحديثة». وعن جواب لسؤال طرح عليه من جريدة إسرائيلية عن ماهية الصراع العربي-الإسرائيلي: «أعتقد أن هناك الكثير من الحقيقة في هذا الأمر... الفرق لا يمكن فقط بين ديانتين مختلفتين، وإنما بين كتلتين حضاريتين مختلفتين[2]».

نفهم إذن أن مقولة صدام الحضارات قدمت كنظرية لإدراك المتغيرات الدولية، وجعل منها هانتنغتون عاملا يتفاعل بالمنطق التحركي نفسه للدول، أي الصراع، وهو ما يمكننا من إدراجه ضمن التيارات الحديثة للواقعية الجديدة. يقول في هذا الباب ريتشارد روبنشتاين Richard Rubenstein : «بالنسبة إلى هانتنغتون كما بالنسبة إلى الواقعيين السابقين، السياسة الدولية هي صراع من أجل السلطة بين مجموعة من الوحدات المنسجمة ولكن المنعزلة بعضها عن بعض والتي تبحث عن تنمية مصالحها الذاتية في محيط فوضوي،

[1] انظر: Bernard Lewis, « The Roots of Muslin Rouge », *Atlantic Mouthy*, vol. 266, n°3, September, 1990, p. 60.

[2] انظر هآرش، 2001/03/22 والقدس العربي 2001/3/23، ص 9.

هانتنغتون استبدل الدولة/الأمة، الوحدة الأساسية للسياسة الواقعية بوحدة أكبر اتساعا هي الحضارة. لكن لعدة اعتبارات فإن قواعد اللعبة مستمرة كما في السابق ولم تتغير[1]».

فهانتنغتون بذلك يتجاوز الدولة كمقياس للسياسة الواقعية وأصبحت الحضارة الفاعل الجديد ولكنها تتصرف حسب المعايير المعروفة للمصلحة. فهذه الأطروحة في جوهرها تعتبر تنظيرا فكريا واستراتيجيا تحمل في طياتها مجموعة من الثوابت والمتغيرات عند شريحة كبيرة من المفكرين الاستراتيجيين في الولايات المتحدة الأمريكية في فترة ما بعد الحرب الباردة الذين يحتاجون دائما إلى العامل/العدو لتبرير الكثير من السياسات الداخلية والخارجية أو تقديم رؤية معينة للنظام العالمي ولموازين القوى بعد سقوط النظام الاشتراكي، حيث يتساءل هانتنغتون في هذا الباب: «إن السؤال الأكثر عمقا الذي يهم الدور الأمريكي في عالم ما بعد الحرب الباردة يدور حول ما إذا لم تعد هناك حرب باردة فما هي الغاية من أن تكون أمريكا ؟[2]».

عن أي حضارة وعن أي ثقافة نتحدث؟

كل حضارة معينة تعكس المعتقدات والمبادئ والقيم التي تنبثق من روح الشعوب وتعبر عن روح الأمة التي تنشئها، فلا يمكن لحضارة معينة أن تولد من فراغ لأنها كما عرفها بعضهم: «توحي إلى نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة في الإنتاج الثقافي. وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي

[1] انظر: Richard E. Rubeustein and Jarle Crocker, “Chollenging Huntington”, *Foreign Policy*, n° 96, 1994, p. 115.
[2] انظر: Samuel Huntington, “ The Erosion of American National Interests” *Foreign Affairs*, vol. 76, n° 5, September-October, 1997, p. 29.

الاضطراب والقلق[1]» فهي بذلك نظام اجتماعي معين معقد ومترابط تحكم الماضي بالحاضر وتضم الفنون والآداب والمعتقدات والمعرفة والعادات والتقاليد وكل القدرات التي يتشبع بها الإنسان بكونه عضوا في المجتمع، وبالرجوع إلى تعريف وليم جيمس ديورنات السابق، لا بد وأن نرى في العناصر الأربعة المؤسسة للحضارة في نظره، أي الموارد الاقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون، أنها تقوم على مجموعة من العقائد وعلى منظومة من الأخلاق وقيم الإيمان وعلى تصور متماسك وشامل للكون والحياة والإنسان، وهذه في نظري القاعدة الأساس لنشوء حضارة ما في أمة من الأمم. فالحضارة هي استمرارية تاريخية يتداخل فيها الاقتصادي والجغرافي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي والثقافي والعلمي. وقد أجاد الأستاذ حامد بن أحمد الرفاعي في هذا الجزء في استحضاره للمعاني المعطاة للحضارة في العالم العربي والغربي، فهي: «الزائد على الضرورة من العمران» (ابن خلدون) و«لكل حضارة دستور أخلاقي، يتجلى في العقيدة وقوة النفس» (أوزولد شبنقلر) و«هي وحدة تاريخية (...) والاستجابة للتحديات عند الإنسان، فردا أو مجتمعا هي سبب نشوء الحضارة» (آرنولد توينبي) قبل أن يقدم الرفاعي تعريفا متميز للحضارة بقوله: «هي ثمرة كل جهد بشرى يبذل لعمارة الأرض وفق ثقافة ما، أي أن لكل أمة منهجها الاجتماعي، ولكل أمة كفاءاتها ومهاراتها المادية أو بعبارة أخرى فإن لكل أمة ثقافتها ومدنيتها الخاصة بها، والثقافة والمدنية عاملان متكاملان في إقامة البناء الحضاري لكل أمة».

فالثقافة تشمل الأفكار واللغة والعادات والتقنيات والأعمال الفنية والأدوات، ويكون استعمالها لصيقا بالبشر الذي يتوفر على القدرة العقلية والتفكير المجرد، لذلك عرفها بعضهم أنها «خاص بالإنسان المفكر Sapiens Homo إضافة إلى أشياء مادية يستعملها بوصفها جزء

[1]وليم جيس ديورنات، قصة الحضارة، المجلد الأول، ص 3، ترجمة العربية، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

لا يتجزأ من هذا السلوك[1]»، ولا يمكن حصر الثقافة في تعريف معين، فقد أحصا كروبر Kroeber وكلوكهوهن Kluckhohn عالما الأنثروبولوجيا المشهورين، أكثر من 160 تعريفا للثقافة منها أنها «الأفكار الذهنية» و«البناء المنطقي» و«الخيال الإحصائي» و«السلوك المتعلم» و«آلية الدفاع النفسي» و«التجريد انطلاقا من سلوك».

وعموما، مهما كانت نوعية الحضارة، إفريقية كانت أو إسلامية أو غريبة أو غير ذلك فهي نتاج تلاقح عدة شعوب وأعراق شتى، تنتمي إلى ثقافات متعددة تصب جميعها في اتجاه تتشكل منه الحضارة، فهي إذن «لا ترتبط بجنس من الأجناس، ولا تنتمي إلى شعب من الشعوب، على الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم على سبيل التعريف ليس إلا، بخلاف الثقافة التي هي رمز للهوية، وعنوان على الذاتية، وتعبير عن الخصوصيات التي تتميز بها أمة من الأمم، أو يتفرد بها شعب من الشعوب»، فالحضارة «وعاء لثقافات متنوعة تعددت أصولها ومشاربها ومصادرها، فامتزجت وتلاقحت فشكلت خصائص الحضارة التي تعبر عن الروح الإنسانية في إشراقاتها وتجلياتها وتعكس المبادئ العامة التي هي القاسم المشترك بين الروافد والمصادر والمشارب جميعا[2]».

وبالرجوع إلى مفهوم الحضارة عند هانتنغتون، نرى أنه يحصرها في كيان مغلق وثابت لا يتحرك، وتتوفر على خصائص قارة تفصلها عن باقي الحضارات، وهاته الخصائص مرتبطة كل الارتباط بالثوابت اللغوية والتاريخية والتراثية والمؤسساتية والدينية. فالحضارات عنده «كيانات هادفة، وعلى الرغم من أن الخطوط التي تفصل بينها نادرا ما تكون حادة فهي تبقى خطوطا حقيقية»

[1]صابر الحباشة، الدين والحضارة بين الإسلام والغرب، تحديات الصراع وشروط الحوار بين النظرية والواقع، *مجلة التسامح*، عدد 17، شتاء 2007، ص 25.

[2] الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2006، ج 8، ص 182.

وهانتنغتون يرفض في هذا الباب التمييز بين الحضارة والثقافة، بل يستعملها في كثيرمن الأحيان كمرادفين، فتجده يقر بأن مصدر النزاعات في العالم سيكون ثقافيا وحضاريا: «الفرض الذي أقدمه هو أن المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا أيدولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول. فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا، وستظل الدول الأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن النزاعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة، وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل»، بمعنى أن العامل الثقافي والحضاري هو المصدر الرئيسي للانقسامات بين الشعوب التي تتطور في ظل تجمعات ثقافية كبرى تتمحور حول سبع أو ثمان حضارات: «مرحلة ما بعد الحرب الباردة تؤكد بشكل واضح أن الانقسامات الجوهرية بين الأفراد ليست ذات طبيعة إيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية بل ثقافية. العالم معرض لأزمة هوية شاملة حيث كل الشعوب والأمم تسعى للإجابة عن السؤال: من نحن ؟ ويجيبون بالرجوع إلى كل ما هو عزيز عليهم، أجدادهم، دينهم، لغتهم، تاريخهم، قيمهم، عاداتهم مؤسساتهم، وبالتحامهم في جماعات ثقافية على شكل عشيرة، مجموعة إثنية، أمة وأخيرا على شكل حضارة».

وهكذا كلام كله خطأ، فالحضارة والثقافة ليستا أمرا واحدا «فخلط الثقافة بالحضارة يدفع إلى تحويل جميع الفوارق النسبية اللغوية أو الإثنولوجية إلى فوارق حضارية، ويقود إلى التعسف في استخدام المفاهيم» كما يكتب الأستاذ برهان غليون في هذا الجزء، ولا يمكن أن نتصور حضارة دون ثقافة أو ثقافات وهي الوقود التي تحرك الحضارات، ولا يمكن أن نتصور ثقافة من دون حضارات «إذ لا يمكن أن نتصور الحضارة كمجال تفاعل الثقافات من دون وجود هذه الثقافات المتفاعلة، كما أنه من الصعب تصور ثقافة معزولة كليا عما

حولها وقائمة بذاتها»، فهانتنغتون إيديولوجي يريد أن يعطي للحضارات والهويات طبائع ليست فيها، فهي ليست كيانات مغلقة، مفرغة من كل تلاقح وتمازج مع نظيرتها التي تحرك المسيرة الإنسانية منذ قرون والتي سمحت كما يكتب إدوارد سعيد «ليس فقط باحتواء الحروب الدينية والتوسع الإمبريالي، بل جعلت التاريخ تاريخا للتبادل والتفاهم والالتقاء الثري»، وهذا كلام صحيح. ففي الحواضر الكبرى تعايش المسلمون والنصارى واليهود وغيرهم في بيئة واحدة، فحميت الكنائس والبيع تماما مثل المساجد واستفادت من العهود والمواثيق التي أبرمت بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات السماوية، وكما يكتب الاستاذ محمد الكتاني: «لقد التقى المسلمون بعد فتوحاتهم على امتداد القرن الأول الهجري مع شعوب كانت على جانب كبير من الحضارة وازدهار الثقافة، كالفرس والرومان والهند، فكانت المرحلة الأولى لهذا اللقاء مرحلة تصادم وصراع بين الفريقين. وبرغم تفوق هذه الشعوب حضاريا يومئذ، فإنها أذعنت لسلطان الإسلام السياسي، فغدت تابعة لدار الخلافة في المدينة أو دمشق أو بغداد، لكن في مقابل هذه السيادة العربية السياسية الدينية ظلت حضارات البلاد المفتوحة وثقافاتها هي صاحبة السيادة. وهو ما جعل البعض يقول بحق: «إذا كان المسلمون قد فتحوا بلاد الأعاجم دينيا وسياسيا، فإن هؤلاء الأعاجم قد فتحوا عقول العرب ثقافيا وحضاريا[1]»، وهو ما يعني أن «الحوار الثقافي والحضاري بين العرب والفرس والرومان وغيرهم كان ضرورة حتمية، بالرغم من الإقرار بأنه لم يكن سهلا، ولا تحقق بوفاق أو تسامح في بداية الأمر، وإنما نتج عن مخاض وصراع دام أكثر من قرنين أو يزيد»، بل الأكثر من ذلك، تمازجت الثقافات الدينية النصرانية واليهودية مع الثقافة الدينية الإسلامية، فقد اطلع المسلمون، كما كتب الأستاذ أحمد أمين عن مظاهر ذلك، على التوازن والإنجيل وما نشأ حولهما من

[1] محمد الكتاني، ثقافة الحوار في الإسلام، من التأسيس إلى التأصيل، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007، ص 221.

ثقافة دينية وإن اختلفوا، لا في اعتبارها كتبا منزلة جديرة بالاحترام، ولكن في اعتبارها قد حرفت إما في النص، وإما في تأويل هذا النص، ولا أدل على هذا الاستمزاج من تأثير بعض تفاسير القرآن بالتوراة وتأثر بعض علماء الكلام بالنصرانية أو باليهودية ومن تأثر التصوف الإسلامي بالنزعة الروحية المسيحية.

إن الصدام الحضاري لن يكون كما يكتب غراهام فولر «حول المسيح أوكونفوشيوس أو الرسول (ص) بل على سوء توزيع الثورة والقوة والنفوذ»، فهناك 20% من ساكنة العالم هي التي تنعم بظروف عيش الدول المتقدمة، والهوة تزداد اتساعا بين الأغنياء والفقراء، وحسب تقارير المؤسسات الدولية، من ضمن ستة ملايير سكان العالم، يعيش ثلاثة ملايير بأقل من دولارين في اليوم و1.2 مليار بأقل من دولار واحد في اليوم أي في عتبة الفقر المطلق، وهناك 1.5 مليار من الساكنة لا تتوفر على الماء الصالح للشرب وسوء توزيع الغنى في العالم الذي يزيد فجوته مع هيمنة العولمة، هي التي تزيد من درجة السخط والغضب وهي التي تؤجج العنف والصراعات الإثنية والعرقية.

فليست الثقافات هنا هي المسؤولة عن المجاعة في إفريقيا ولا عن هاته الفوضى الاجتماعية والفوارق الاقتصادية؛ والعولمة هنا بدل أن تقوم بإنماء الدول الفقيرة كما يظن البعض، فهي في شكلها الحالي «من شأنها أن تكون في مصلحة القوى الاقتصادية الأكثر قدرة وقوة، ورغم أنها تشكل قيمة مضافة بالنسبة للمنافسة وتقدم الإنسانية، فهي لا تخدم إلا جزءا من ساكنة العالم، القادرة على استغلال السوق والموارد المتوفرة»، وليست الحضارة والثقافة العربية هي المسؤولة عن السلطوية في الأنظمة السياسية العربية، وعن التخلف والتراجع الحضاري واستمرار الضعف، فالعامل السياسي البنيوي السائد هو المسؤول عن ذلك كله؛ فإذا كان هاجس بعض الدول العربية في امتناعها عن خوض انتخابات حرة ونزيهة، هو صعود أحزاب إسلامية، فما بال دول عربية استئصل منها الوجود الحزبي الإسلامي

ومع ذلك لا وجود لرائحة النشاط الديمقراطي، فأجهزة القوى الأمنية والسياسات التسلطية في الدول العربية هي المسؤولة عن طول الأنظمة السياسية الاستبدادية؛ وتفسير هذه الظاهرة بالعامل الديني أو بالعامل الثقافي أو بالعامل الحضاري هو هروب من مواجهة الواقع المر، ويعفي من مغبة مواجهة الاستبداد السياسي المتمثل في نظام يحتكر مواطن النفوذ ويستحوذ عليها، وكما يكتب بحق الأستاذ إيليا حريق في هذا الانزلاق الفكري: «الخطر في ذلك المسلك الانحرافي أنه قد يوجه الأنظار بعيدا عن مجابهة النظام السياسي الاستبدادي وتوجيهها نحو معالجة أفكار الناس وسلوكها، ورغم أنها ليست السبب ورغم أنها عملية طويلة الأمد، ففي مثل ذلك النهج خطر قيام طغيان من نوع جديد يشبه في حالته القصوى غسيل الأدمغة. إن استراتيجية توجيه العاملين في السياسة نحو تغيير الذهنيات والمسالك في المجتمع كخطوة أولى من أجل تحقيق الديمقراطية ملهاة أول المرحبين بها هم الطغاة أنفسهم، تماما كما هو الحال في الترويج لفكرة بناء المجتمع المدني كأول السبل إلى الديمقراطية، وهي من الأفكار الشائعة اليوم في الأكاديمية الغربية» وهذا الانحراف الفكري الخطير شبيه بنظرية هانتنغتون التي تساهم في توجيه الرأي العام الغربي إلى وجهات غالطة تبعده عن الرؤية الصائبة في تفسير الأزمات وعواملها الحقيقية وتغذيه في نفس الوقت بمشاعر الكراهية والعنصرية والعداء ضد الآخر الذي هو هنا المسلم والدين الذي هو هنا الإسلام، فالواقع أن نظريته لا أساس لها في الواقع ولا تتوفر على أي ميزة تحليلية تاريخية وعلمية تساعد الإنسان على توخي طريقه.

❖

وغرضنا من نشر هذه الأجزاء الخمسة هو إزالة ما قد نراه من الغبش الفكري الذي يتراكم اليوم على بعض الحقائق الجلية، تحت تأثير نظريات جاحفة وأحقاد شخصية وهذا من شأنه أن يمد جسور

الفهم المشترك ويقوي من الوشائج في سبيل بناء الأسرة الإنسانية الواحدة.

وتحت سلطان المبدأ العقلي المتزن، يسعى الجزء الأول إلى نسج الأحكام وإبرازها لمد جسور الفهم والتعايش بين المسلمين وغيرهم، وترسيخ الجامع المشترك لإزالة كل التضاريس النفسية والاجتماعية التي قد تترعرع في ظل العصبيات والكثير من مشاعر الضغائن والأحقاد.

حاولت مقالات هذا الجزء إبراز أن الاختلاف هي ظاهرة كونية عامة جعلها الله عز وجل سنة في خلقه «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون» (الروم-22)، «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم» (المائدة-48)، وهذا الاختلاف يحث على إثارة السؤال عن كيفية الاستفادة منه، والجواب كما تبين بجدارة وموضوعية مقالتا العالمين عباس الجراري ومحمد الكتاني يكمن في الحوار، والإسلام الذي كان رائدا في ترسيخ ثقافة الحوار وبلورة حضارة عم إشعاعها كل العالم، قام على حوار الحضارات والتعايش مع الأديان، والله عز وجل أقام هدايته للعالمين على أساس الدعوة إلى التوحيد بالتي هي أحسن، وأنه لا إكراه في الدين، بل يعطي لنا القرآن صورة هذا الحوار الذي جرى في عالم الغيب والشهادة قبل وجود الإنسان جاعلا من اختلاف الشعوب والقبائل سبيلا للتعارف والتلاقح والتآزر «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» (الحجرات-13).

من هنا يبرز الأستاذان عباس الجراري ومحمد الكتاني أن المسلمين ليس لهم مشكل مع الحوار، فالقرآن مبني على الحوار ويحدد منهجه ويقدم مجموعة من المصطلحات المتصلة به، وطبق الحوار على أصعدة مختلفة ومستويات متعددة، إذ حاور الله تعالى الملائكة والرسل بل وحتى إبليس «وقد وصل هذا الحوار إلى حد الرغبة في الاطلاع الملموس على الكيفية التي يحيي الله بها الموتى،

مما ينم في الحقيقة على سعي إلى المعرفة اليقينية القائمة على الرؤية البصرية، والمعني بها ليس إبراهيم عليه السلام، ولكن غيره من الذين قد يسألون أو يشكون: «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا، ثم ادعهن ياتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم» (البقرة-260) كما يكتب الأستاذ عباس الجراري، وقد أفاض الأستاذ محمد الكتاني في الحديث عن إقرار الإسلام بحرية الإنسان، ولاسيما في مجال الفكر والاعتقاد ونظرته الموسعة إلى الاختلاف الذي يجسد تلك الحرية لأن الحديث عن إقرار الحوار أو مشروعيته في غياب الحرية وحق الاختلاف سيكون ضربا من التناقض؛ وبين أن نشوء المذاهب الاعتقادية أو الكلامية والمذاهب الفقهية مظهر صحي للحضارة الإسلامية حيث جسدت ثقافة الحوار واحترام الاختلاف والتعددية الفكرية: «ذلك أن أهم ما ينبغي تسجيله في سياق تأصيل مناهج الحوار والمناظرة وآداب الحديث في الثقافة الإسلامية هو أن العلماء الذين صنفوا في فنونها انطلقوا من مبدأ طلب الحق في مناظراتهم والدفاع عما بدا لهم حقا في جدلهم، واضعين لهذا الجدل آدابا وشروطا وأهدافا، جعلت من انتهاج الحوار العلمي والعقلي والفقهي صناعة منهجية محكمة القواعد والأصول»؛ وقد حدد شروط الحوار الوجوبية و أركانه الإجرائية وأخلاقياته المرعية وأنها يجب أن تسعى إلى طلب الحق لأن هذا المبدأ هو الذي يحدد البعدين: العلمي والأخلاقي الذين يتوخاهما الإسلام في كل حوار سواء فيما بين المسلمين أنفسهم، أو مع غيرهم.

وفي هذا المجال الواسع تعايش المسلمون والنصارى واليهود في بيئة واحدة فظلت الكنائس والبيع مثل المساجد الإسلامية بيوتا للصلاة والعبادة بالنسبة لأتباعها، وتستفيد من العهود والمواثيق المبرمة بين أهلها وبين حكام المسلمين، ويستعرض الأستاذ محمد العربي المساري في هذا الجزء قصة من واقع التاريخ المغربي تزكي ثقافة

الحوار التي تطبع الحضارة العربية والإسلامية، إذ في قلب الصراع المغربي-الفرنسي أثناء الحماية وبالضبط في فاتح دجنبر 1955 وبعد أسبوعين فقط من عودة محمد الخامس من المنفى، قام هذا الأخير بتوشيح المونسيور أميدي لوفيفر الذي عرف بجهده في التقارب بين المغاربة والفرنسيين أثناء الأزمة الحادة التي تميزت بها الفترة الأخيرة من العهد الاستعماري، وقد أعطى المرحوم محمد الخامس الأسبقية لهذه المبادرة رغم انهماكه في تشكيل الحكومة التي كان على أعبائها النهوض بالتفاوض على الاستقلال، ويؤكد الأستاذ محمد العربي المساري ذو التجربة الطويلة أن هذا العمل كان تكريسا لسلوك استقر في عمل الحركة الوطنية المغربية منذ الثلاثينات من القرن الماضي.

وينحى المفكر المصري فهمي هويدي في الاتجاه الفكري للأستاذين عباس الجراري ومحمد الكتاني، «فالآخر» أيا كانت ديانته لم يكن يمثل مشكلة لدى العقل الفكري المسلم لسبب واحد هو أن الإسلام رسم مجموعة من المحددات حكمت هذه العلاقة لخصها في ستة: 1- التذكير القرآني المستمر بأخوة بين الإنسان وكونهم خلقوا من نفس واحدة وهذا الانتماء يمثل أول القواسم المشتركة بين المسلمين وغيرهم 2- تقرير حق كل إنسان في الكرامة حتى يقدم القرآن الإنسان – كل إنسان – باعتباره مخلوق الله المختار «ولقد كرمنا بني آدم» 3- الاختلاف بين الناس أمر واقع بمشيئة الله تعالى وسنة من سنن الله في الكون 4- الآخر إذا كانت له شرعيته بمقتضى انتمائه الإنساني، فإن المؤمنين بالله منهم يكتسبون شرعية إضافية، حيث يشكل ذلك الإيمان وشيجة أخرى توسع من دائرة التواصل 5- ديانة الآخر في الشريعة الإسلامية لا تنتقص من حقوقه فله ما لنا وعليه ما علينا، وشأن العقيدة يبقى موكولا إلى الله سبحانه وتعالى 6- وهي نتاج كل المحددات السابقة، ذلك أنها تمهد الطريق للاستجابة للتوجيه الإلهي الداعي إلى التعاون فيما فيه خير البرية، فالطريق يغدو مفتوحا أمام المسلمين للاشتراك مع غيرهم في «حلف فضول»

جديد لإسعاد البشر وإقامة عالم يسوده السلام والمحبة والمنافع المشتركة، وهذا التواصل تحقق داخل الحضارة الإسلامية على مدار التاريخ وله شواهده الكثيرة، «وما كل الفسيفساء التي تتوزع على أرجاء العالم العربي والإسلامي إلا دليل على أن كل آخر حفظت له الدولة الإسلامية كرامته وحقه في المشاركة والبناء، ويعرف الباحثون جيدا أن الحضارة الإسلامية لم تقم على أكتاف المسلمين وحدهم، وإنما كان لغير المسلمين إسهامهم المقدر فيها، سواء كانوا يهودا أو نصارى، ويعرف هؤلاء جيدا أن المسلمين ما فتحوا بلدا إلا وأبقوا على كل مقوماته الثقافية والاجتماعية كما هي»، والعالم الغربي قلما يتذكر إسهام الحضارة الإسلامية والتي كان يتواجد أحد مراكزها بإسبانيا، في تعميم المعارف الجديدة في مجال العلم والفلسفة والأدب والقانون والطب وغيرها من المجالات، والأمثلة كثيرة عن الإسهامات الكبيرة لهذه الحضارة في منعطف الألفية الأولى كما سيسردها رئيس المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر الأستاذ أبو عمران الشيخ، الذي توقف عند ابن رشد فيلسوف قرطبة الشهير، الطبيب والفقيه الذي عرفه الغرب كشارح لأرسطو، وعند حنين بن إسحاق البغدادي الذي ترجم جزءا كبيرا من مؤلفات «هيبوغراط» و «غاليانوس» وألف كتبا في الطب والصيدلة وعند ابن ريان الطبري الذي دون «كتاب الفردوس» في الطب واشتهر به، وعند ابن سيناء «الشيخ الرئيس» الذي ألف موسوعة شهيرة عنوانها «القانون في الطب» الذي صار مرجعا ضروريا للدراسات الطبية في الشرق وفي الغرب إلى جانب كتب الرازي والزهراوبي وابن رشد، وتوقف عند علماء العرب والمسلمين الذين ترجموا المؤلفات اليونانية والهندية في الهندسة والجبر والحساب ومن بين هؤلاء ابن موسى الخوارزمي وثابت بن قرة وابن البناء المراكشي والقلصادي الأندلسي، واطلع علماء العرب على أغلب النصوص اليونانية وعالجوها معالجة نقدية كالبيروني الذي انتقد أرسطو كما جاء في مراسلاته مع ابن سينا، وقام مؤلفو الموسوعات كالرازي وابن سينا بمعالجة العديد من مسائل

العلوم الفيزيائية والطبيعية، وتميز ابن الهيثم في الفيزياء بكتابه الشهير في علم البصريات «كتاب المناظر»، والأمثلة كثيرة، وهنا أستشهد بالعالم برناد لكسيس الذي وصف الحضارة العربية الإسلامية عندما أتيحت له فرصة إعادة رسم تاريخ المنطقة العربية: «لقد كان العالم الإسلامي على مدى قرون عدة، في طليعة الحضارة الإنسانية وإنجازاتها، والإسلام قد خلق حضارة متعددة الإثتيات والأعراق، حضارة عالمية، لقد شكلت هذه الحضارة أكبر قوة اقتصادية في العالم، إذ بلغت ذروتها الحضارية على مستوى الفن والعلم، لم يشهد لهما التاريخ البشري مثيلا».

عموما، فمساهمة الثقافة العربية والثقافة الإسلامية في بلورة وتطور الثقافة العالمية هو مظهر من مظاهر التفاعل الثقافي الذي نعتبره رديفا للتفاعل الحضاري، وتدخل المنهج القرآني الذي ثبت مفهوم الاختلاف وجعله من سنن الاجتماع البشري ليس المقصود به إلغاء الاختلاف بل الوصول بالمعرفة والحوار إلى التعارف وتعرف كل من الطرفين للآخر، ومن واجب الأمانة العلمية والتاريخية أن لا ندعي أن المجتمعات المسلمة التزمت برؤى «التسامح» أو الاعتراف بالاختلاف أو بالمحددات الست التي تفانى الأستاذ فهمي هويدي في وصفها، طول الوقت، «حيث لم يخل الأمر من فترات استثنائية اختلت فيها تلك العلاقة، الأمر الذي ينبهنا إلى أهمية ملاحظة التفرقة بين التعاليم والتاريخ وإلى ضرورة الاتفاق على أن التعاليم هي التي تحاكم التاريخ وليس العكس».

ويتناول في هذا الشأن رئيس المنتدى العالمي للحوار الأستاذ حامد بن أحمد الرفاعي في مقالة على درجة كبيرة من العلمية معوقات السير الحضاري في حياة الأمم وبالأخص الإشكالية الحضارية عند المسلمين حيث يجمله في اضطراب مفاهيم العلاقة:

1- بين العقيدة والشريعة والرسالة
2- بين تدين الأفراد وتدين الدولة

3- بين التمايز العقدي للأمة وبين مهمة المشترك العمراني مع الآخر.

وإشكاليته الثالثة التي تهمنا هنا هي الاضطراب بين فقه التمايز العقدي للأمة، وفقه المشترك العمراني أو الحضاري بينها وبين الآخرين، فإلى جانب العبادات الروحية كالصلاة والصوم هناك العبادة العمرانية أو العبادة الحضارية التي تتمثل بأداء الإنسان وممارسته في ميادين الحياة وهي المعنية بالنهوض بمسؤولية أمانة الاستخلاف في الأرض «فعندما تخلفنا وتقاعسنا عن تفعيل قيم الإسلام ورسالته في الحياة، واكتفينا بالارتباط الوجداني والعقدي بالإسلام، وانحبسنا بمحاريب العبادة الروحية، وعزلنا أنفسنا عن محاريب العبادة العمرانية، وعطلنا الحوافز الدينية والواجبات الربانية، التي تدعونا وتأمرنا للأخذ بأسباب البحث العلمي والتكنولوجي أصابنا ما أصابنا مما لا نحسد عليه من تخلف وهوان»، فإشكالية التقدم عند المسلمين ليست بسبب الإسلام ولكن بسبب تعطيل الأداء الحضاري المتميز الذي يدعو إليه الإسلام، وهذا خير رد حول الشبهات التي تثار حول مساهمة الإسلام في الأداء والتقدم الحضاري، فمسألة التقدم عند العلامة حامد الرفاعي تتعلق بتفعيل ميادين الحياة، أو تفعيل مرتكز «فامشوا» في حياتنا، ويحاول أن ينقلنا من جدلية تبادل التهم بشأن ضعف الإيمان والبعد عن الله كسبب لحالة تخلفنا إلى موضوع معالجة إشكالية تخلفنا في ميادين الأداء الحضاري.

فالتفرقة إذن بين التعاليم والتاريخ أمر ضروري، واستجلاؤنا لمعالمهما ليس إطنابا ولا سردا، وإنما يساعدنا على قراءة التاريخ بعين فاحصة وتكشف لنا كما يكتب الأستاذ فهمي هويدي «متى كانت المجتمعات الإسلامية معبرة حقا عن الالتزام بالتعاليم ومتصالحة معها، ومتى انفصلت تلك المجتمعات عن التعاليم وتباعدت عنها»، فالإسلام كمنهج وعقيدة بريء عن تلك التجاوزات التي عرفتها بعض الحقب من حياة المسلمين، وهو بريء من تجاهل بعض المتطرفين

من أتباعه، ففي هذا الشأن، التعاليم هي التي تحاكم التاريخ وليس العكس.

إن القرآن الذي هو مصدر التشريع وهو المقر بصدق كل الرسالات السماوية وعلى دعوة أهلها إلى كلمة سواء وعلى طلب الحق وتحصيل العلم به ونبذ التقليد المحبط وتقديس السلف، قد فتح كل الأبواب أمام أتباع النبي محمد «ص» للتعايش مع الشعوب ذوي الحضارات والأديان السماوية والأخذ بمبدأ التعدد والتسامح والاعتراف وتحقيق العدل بين كل البشر وتوخي المقاصد الإنسانية والقيم المشتركة، التي عرفها العالم الإيراني الأستاذ محمد علي التسخيري في هذا الجزء على أنها «الأمور التي ينطلق الإنسان من ذاته أو من ركائز عقيدته ليعطيها قيما معنوية مطلقة تؤثر من خلالها على كل مسيرته الحياتية». وقد وسم التسخيري في تعريفه للحضارة بالإنسانية التي هي من أهم مقوماتها «ولا يمكن أن يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلا إذا اتسم بالصفة الإنسانية وهي حسب استدلاله تلازم الإيمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشتركة»، والسمة الثابتة المميزة هنا هي الفطرة الإنسانية والإيمان بها يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم «الحقوق» و«التكاليف» و«العدالة» و«الإنسانية» و«الأخلاق» و«الذوق الفني العام» و«القيم المشتركة» و«الحضارة» و«الحوار» و«الدين» و«المعرفة» و«التصديق» إلى غير ذلك، قبل أن يخلص الكاتب إلى أن هناك تلازما تاما بين المسيرة الحضارية الإنسانية التعبيرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة، ومن ثم كانت عملية الحوار ممكنة بين الأديان ممكنا لأنها: 1- تؤمن بنظرية الفطرة الإنسانية وتوابعها 2- وبقيم مشتركة كثيرة حتى ليلمح الإنسان تطابقا تاما في أصول القواعد 3- وبما أنها تشكل روح الحضارات فإن الحوار بينها يفسح لحوار حضاري أصيل يمتد إلى مختلف المساحات الحياتية ويوجه الحوار الحضاري نحو مسارات أكثر إنسانية؛ ثم إن منطق العقل يقتضي أن يسود منطق الحوار بين

الحضارات لأنها تحمل بشكل واضح بصمات الفطرة، اعترفت بها بشكل فلسفي أو رفضتها في مواجهة مقتضيات العاطفة الجامحة والعصبية المقيتة والانحباس في بوتقة الماضي. فالحوار إذن هو مقتضى الترابط ووحدة المصير الإنساني وإذا لم ينتج عنه نتائج ملموسة فإن ذلك كما يكتب الأستاذ حسن عزوزي راجع بالأساس إلى عدم اكتشاف خصائص ومميزات وقيم الحضارات الأخرى، وهذا ما يستنتجه من نظرية صامويل هانتنغتون التي فيها تجن كبير وتجاهل واضح لروح الإسلام وقيمه ومثله السمحة، وبناء على ذلك فمصطلح حوار الحضارات «يكاد يفرغ في بعض الأحيان من معناه لأنه لا يقوم أيضا على أساس من احترام الخصوصيات الدينية والثقافية لكل الحضارات والشعوب»، فالحوار يبقى رهينا بمبدأ التعارف المسبق وتصحيح المفاهيم الخاطئة والمغلوطة التي تكون قد تكونت بفعل عوامل تاريخية متعددة؛ ومن هنا يلاحظ الأستاذ حسن عزوزي «أن من أكبر أسباب عدم نجاح كثير من لقاءات الحوار الحضاري والديني التي تعقد، بين الفنية والأخرى، بين الجانب الإسلامي والجانب الغربي كون هذا الأخير – وباعتراف عقلائه ومنصفيه – لم يستطع حتى الآن تمثل قيمة الإسلام الحضارية وسمو مبادئه وتعاليم الروحية التي تدعو إلى السلم والأمن والتسامح مع الذات ومع الآخر» ولكن لا يجب أن ننسى أن من بين أهداف الحوار التعارف، ففي تبادل وجهات النظر استهداف للتوافق أو قل للتعارف عن طريق الحجة.

وقد شارك في هذه الأجزاء بعض من تلامذة صامويل هانتنغتون كالأستاذة جيل كريستل، ولكنهم لا يشاطرون نظريات معلمهم، فالحديث معهم ومع نظرائهم جدير بأن يأخذ مسارا حواريا موصلا إلى التقارب لأنه سيكون قائما على «البينة»، بل وحتى مع صامويل هانتنغتون نفسه ومناصريه، فالحوار يجب أن يبقى، ومناظرتهم تكون بالدليل أو قل بالحجة[1]، ويراود نفس الشك المفكر السوري الأستاذ

[1]كما قال ابن سينا: جرت العادة أن يسمى الشيء الموصل إلى التصديق حجة، فمنه قياس ومنه استقراء، لكن من حيث إفادته للبيان يسمى بينة ومن حيث طلبة الغلبة يسمى «حجة»، المعجم الفلسفي – جميل صليبا: مادة «الحجة».

برهان غليون لكن ليس انطلاقا من مبدأ التعارف الذي يجب أن يسبق الحوار ولكن من خلال إشكالية فرض الغرب لمسار أحادي في الحوار بين الحضارات والثقافات، «فإذا لم تنجح مجتمعات الجنوب في إعداد هذا الحوار إعدادا سياسيا وجديا، فسيكون من السهل على الدول الصناعية استخدامه لتغطية هربها من المسؤولية الدولية مقابل إرضاء المسلمين والجماعات الثقافية الضعيفة الأخرى ببعض التنازلات المعنوية في ميدان الاعتراف الشكلي بقيمة الحضارات الأخرى غير الأوروبية وحقها في التعبير عن نفسها أو في تطبيق قيمها داخل المجال الخاص»، كما يحذر الأستاذ غليون في مقالته من مغبة السقوط في فخ الصراع على الهوية أو نزاع الهوية عن طريق المقارنة أو المفاضلة بين منظومات القيم الحضارية متعددة الجماعات أو إثبات خصوصية القيم الثقافية لكل حضارة وتأكيد ضرورة احترام الحضارات الأخرى لهذه الخصوصية، «فلا يمكن للهوية أن تكون موضوع حوار أو مفاوضات، كما لا يمكن للثقافات والديانات أن تقبل بأن تشكل موضوع مساومة ولا موضوع تفاهم، فهي قائمة كليا على مسلمات وموروثات واعتقادات ولا يمكن التشكيك فيها أو وضعها موضع التساؤل من دون المغامرة بزعزعة الأركان الأسطورية التي تقوم عليها أي ذات جماعية». وأظن من جهتي أن الخصوصيات الثقافية أو المسلمات الثقافية يمكن الاستناد إليها في حوار الحضارات والثقافات لا كسبيل للمفاضلة بين منظومات القيم الحضارية ولكن كعامل من عوامل التعارف وإزالة غواشي اللبس والجهل عند الطرف الآخر أي دخولها في نقاش وتداول للآراء بقصد التقريب بين المواقف ووضع حد للقطيعة، فكم هي أسئلة طلبتنا وزملائنا في الجامعات الأوروبية وهم يسألون عن الهوية الثقافية العربية من أين تبتدئ ومن أين تنتهي، فبدون إبرازها لا يمكن أن يفهم بعضنا الآخر ولا الاتحاد على القواسم المشتركة، فمعرفة الآخر ضرورة مطلوبة ومقالة سيلين ليزني الخبيرة في مجلة فوتريبل Futuribles الفرنسية في هذا الجزء أكبر دليل على ذلك، حيث إنه بناء على استطلاعات رأي

قامت بها بعض المؤسسات العالمية المشهورة، أكثر من 45% من الأمريكيين سنة 2007 يظنون أن الإسلام يشجع على العنف مقابل 39% من أولئك الذين ظنوا عكس ذلك، وقد ارتفعت هذه النسبة لاسيما لدى حاملي الشهادات الجامعية حيث انتقلت من 28% في سنة 2005 إلى 45% وحين يطلب منهم وصف الإسلام نجد أن المصطلحات السلبية قد ذكرت مرتين أكثر من المصطلحات الإيجابية كما أن 43% منهم يقرون أن المسلمين قد ساهموا حقا في بناء الحضارة الإنسانية.

صحيح أن الحديث عن الهوية يعكس «هواجس نفسية أكثر مما تعبر عن الشعور بالمسؤوليات الدولية» كما يكتب الأستاذ برهان غليون ولكن الأنجع أن تعبر عن الهواجس النفسية وعن الشعور بالمسؤوليات الدولية، لأن المشكلة تكمن إجمالا في عدم التعارف وسيادة الجهل المتبادل والفهم المغلوط أو ذيوع الصورة النمطية المشوهة للحضارة الأخرى، وخصوصا تجاهل الشعور بالمسؤوليات الدولية أوقل التغاضي عنها ورمي المسؤولية على الآخر المستضعف لإخراج الحوار من دائرته الفطرية وإعطاء غطاء لبعض السياسات الدولية، فالغرب «يحمل عبء هذه الأوضاع وأسباب تطورها إلى الخصوصيات الحضارية، ويتجاهل دور السياسات الدولية الواعية والمختارة، في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية معا، وما قادت إليه من إدماج العالم في حركة واحدة، وما نجم عنها من توزيع غير عادل للموارد المادية والمعنوية معا»، وهذا الكلام الذي أورده الأستاذ برهان غليون في مقدمة مقالته هو جزء من اللاتوازن الحواري الذي تسعى بعض الأوساط الغربية إلى فرضه وهو الذي يجب كشفه ومحاربته.

وهنا نلتقي جما مع عالم غربي مطلع على العالم العربي والإسلامي الأستاذ فرنسوا برجات الذي استشهدنا به منذ البداية، فأول مفارقة لحوار الحضارات تكمن في نظره أنها تساهم في إضفاء المصداقية على بعض السياسات الدولية بدل إظهار طابعها التوسعي أو الإيديولوجي، إذ بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 بدأ

اهتمام الدول يبرز جليا حول فكرة «حوار الثقافات» حيث أوكلت لها مهمة احتواء الصدمة القادمة، ولكن الأستاذ بجامعة إكس إنبروفانس الفرنسية يؤكد أن القنابل التي أطلقها طائرات بـ52 في أفغانستان لم تسبقها أي دعوة للالتقاء حول طاولة المفاوضات قصد تجاوز الخلافات الثقافية كما أن الغزو الأمريكي للعراق والعمليات العسكرية الروسية في الشيشان لم يسبقهما أي نوع من حوار الحضارات، فالعامل الثقافي Variable culturelle يساهم في الكثير من الأحيان كآلية تحجب المسببات السياسية للتوترات و«بالتالي فإنها تؤيد في الغالب توزيعا أحاديا للمسؤوليات، «أمراض» ثقافة الآخر التي تكفي لتفسير صعوبة تعايشنا معه «...» فهو يخفي العوامل السياسية والتوترات الدولية وبالتالي المسؤولبن السياسيين عنها»، ويعطي مثالا واضحا على ذلك في الأدبيات الغربية حيث يكفي التركيز على بعض المفردات «الإسلامية» في حق بعض المقاومين لإخفاء المطالب الشرعية التي ينادون بها، والإشارة هنا واضحة للمقاوم الفلسطيني. ويذهب فرانسوا بيرجات بعيدا في تحليله عندما يكتب أن الإسرائيليين حاولوا مبكرا «من خلال استخلاص الدعم من أعمال برنارد لويس نزع الغطاء السياسي عن صراعهم مع الفلسطينيين والترويج لفكرة أن خلافاتهم مع هؤلاء تعود بالدرجة الأولى إلى كنه وجوهر الحضارة بصفة عامة، وللعجز الديموقراطي الهيكلي لياسر عرفات بشكل خاص، بدل التركيز على الأضرار الإنسانية التي خلفها احتلالهم للأراضي الفلسطينية، كما أن الرئيس الأمريكي أو حليفة البريطاني الوفي حاول التلاعب بالخطابات البراقة حين ظن أن بإمكانه تفسير رفض سياسته بالشرق الأوسط أو في العالم من خلال معاداة المواطنين لقيم الحرية والتحرر التي ترفع لواءها الولايات المتحدة الأمريكية»، فهذا ما يمكن أن أسميه بنفاق الدول الكبرى في حوارها مع دول العالم الثالث، إذ تؤسس سياسات خارجية يطبعها نفاق كبير لتبرير أسلوبها القمعي، محملة عبء هذا الوزر وأسباب تطوره إلى الخصوصية الحضارية؛ رأينا ذلك أثناء حرب الاتحاد

السوفيتي على أفغانستان ثم روسيا على الشيشان، فهجوم الولايات المتحدة على العراق، كما رأينا ذلك وما زلنا نراه يوميا في فلسطين المحتلة منذ أكثر من نصف قرن.

نخلص إلى أن الحوار في بعده السياسي الدولي له ميزة خاصة ونتائج أكثر إيجابية ننتقل به من الكليانية إلى الجزئية، لأنه يكشف عن حقائق تبقى مدفونة في بعض أنواع الحوار كالحوار المسيحي-الإسلامي مثلا، لأنه ليست الديانات التي تكون مسؤولة عن النزاع أو القطيعة وإنما هي السياسات الخارجية للدول وبخاصة الدول الاقتصادية والعسكرية منها التي تؤجج الخصوصيات الحضارية لتمرير أو تبرير خططها المتعددة، وهذه السياسات الخارجية تكون مدعومة كما هو الشأن في الولايات المتحدة الأمريكية بمراكز القرارات النافذة والإعلام السمعي والبصري وكلها من المؤثرات المباشرة على شريحة هامة من الرأي العام الذي يتغذى بهذه المغالطات ويذهب ضحية التحريف المبرمج للوقائع من طرف صناع ومهندسي السياسات الخارجية؛ ويذهب الأب بيير ميشل لولان في هذا الاتجاه عندما يقر بأن الغرب لم يعد محطة تقدير لدى المثقفين المغاربيين ولا لدى الشباب الإفريقي أو الشرق أوسطي «فاحتجاج هؤلاء يتعلق بالسياسة المتبعة في العالم، وخصوصا في الشرق الأوسط «العراق، إيران، فلسطين»، سياسة الكيل بمكيالين التي تدعي حرصها على احترام القانون الدولي ولكن بنوع من الهندسة المتغيرة، لأنها لا تفرض على دولة إسرائيل الانصياع لقرارات الأمم المتحدة» ويستسرد الأب بيير مثيل لولان حديثه عن إسرائيل في آخر المقالة مبرزا لنا سياسة الكيل بمكيالين للدول العظمى وعلى رأسها أمريكا في حق العرب والفلسطينيين، لأنها لا تعامل إسرائيل في سياساتها الخارجية كما تعامل باقي الدول العربية خاصة التي هي في حلبة الصراع كالعراق وفلسطين المحتلة.

إضافة إلى هذين الكاتبين الغربيين المنصفين، تأتي الأستاذة الإسبانية خيما مارتن مونيز لتزكي هي أيضا هذا الطرح، حيث تحلل

بموضوعيته تداخل الثقافة والسياسة في علاقة الغرب بالشرق؛ وهذا الأسلوب قديم نهجته الدول الاستعمارية إذ «عملت أوروبا قدما من أجل تبرير سيطرتها على الشعوب المستعمرة مستترة خلف ستار القيم الأخلاقية وذلك في محاولة منها لتغطية الأعمال الوحشية التي اقترفتها خارج حدودها»، بمعنى أن أوروبا سعت جاهدة إلى الحط من الإرث الثقافي والتاريخي العربي الإسلامي «باعتباره عاجزا عن دفع عجلة التطور والالتحاق بركب الحضارة والرقي» أي أن الإسلام وثقافة المسلمين في التركيبة التعليلية الاستعمارية حسب خيما مارتن مونيز هما رديفا التخلف والرجعية، ومن ثم «رسخت أوروبا في عقول الناس أفكارا باطلة عن كل ما يتعلق بالإسلام، وسعت من أجل إقصاء إرثه الفكري والثقافي من عالم الحداثة التي حصرتها في النموذج الأوروبي لا غير»، ومن ثم «ساهم هذا البسط في تغذية التأويلات الجوهرية التي يتم على أساسها، عند تحليل المجتمعات الإسلامية ودراستها، التركيز على مجموعة من العوامل يفترض أنها مرتبطة كل الارتباط بثقافة هذه المجتمعات وبدينها، ومن ثم صنفت على أنها مجموعة تتصرف على منوال واحد، وكأن احتمال وجود الخيار الفردي منعدم داخل هذه المجتمعات التي عينت لها ميزات الرجعية واللاعقلانية».

إنه كلام سديد يلخص تقييم الدول الغربية لعلاقتها مع «الآخرين» المبني على التفوق بسبب رجعية وتخلف المجتمعات المسلمة، أي أنها تحلل واقع الشعوب المسلمة انطلاقا من دينها مع التهميش المبرمج للعوامل السياسية والاقتصادية التي تقف وراء النزاعات والتوترات، وتخفي من وراء ذلك هذه الدول حقيقة سياستها الخارجية بصفة عامة ومعها بصفة خاصة، وترسخ للأسف الشديد في عقول الناس أفكارا باطلة وخطيرة عن كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين مقصية إرثهم الثقافي من عالم الحداثة، «فهذا الخليط من العداوة والتبسيط، الذي يغذي بدوره تلك الصورة التي رسمت عن «الإنسان الإسلامي» كعنصر مهدد ورجعي وعنيف لا يمكن أن تتولد عنه أبدا مشاعر

التقارب والتفاهم، بل إن الواقع يقر عكس ذلك، حيث إن المخيلة الثقافية المنبثقة من هذه الأفكار تسعى إلى ستر الممارسات الاستفزازية التي يقوم بها الغرب إزاء العالم العربي والإسلامي وغالبا ما تكون هذه الممارسات الأسباب الحقيقية لتوتر العلاقات بين الجانبين»، فالعامل السياسي هو الذي أخرج ثقافة التقارب والتلاقح من مساره، وهو السبب الرئيسي لذلك الإدراك السلبي القائم في المجتمعات العربية والإسلامية إزاء ما يعرف بالعالم الغربي، فالصراع إذن كما يبرز الفيلسوف الموريتاني عبد الله السيد ولد أباه بمنهجيته النقدية ليس صداما فكريا ولا عقديا، مهما كانت الصيغة الخطابية التي يتخذها بل هو صراع مصالح وقوى وصورة، ومن الخلط اختزاله في مواجهة متخيلة بين الإسلام والغرب، فرؤية المركزية الغربية كما يكتب الدكتور رضوان زيادة «تمحورت على النظر إلى الآخرين بوصفهم «برابرة» وبوصف الذات أو الأنا الغربية بأنها المتحضرة، ولذلك فإن نقد المركزية الغربية انطلق من تفكيك هذه الرؤية على اعتبار أن تلك الرؤية الاختزالية التي انطلقت بشكل رئيسي من علمي الإنتروبولوجيا والإثنولوجيا كانت تهدف بشكل رئيسي إلى السيطرة الاستعمارية ومحاولة تبرير أو شرعنة الاستيلاء على أرض الغير وشعوبها أيضا بالقوة بغية تحضيرها أو تمدينها» فالإسلاموفوبيا أو نزعة العداء للإسلام قد تزايدت في السنوات الأخيرة ولكن ليس بسبب تركة الحروب الصليبية ولا خلفيات لاهوتية دينية وإنما بسبب العوامل السياسية التي أطلق رصاصها صناع السياسات الخارجية وبسبب التراكمات المتتالية لستر السياسات التوسعية والاستفزازية وللجهل العميق في الأوساط الغربية بحقائق التاريخ والحضارة وثقافة الآخر. ومن هنا تتجلى حسب الأستاذ سمير بودينار «أهمية الدفع باتجاه مستوى الحالة الحوارية من مسار الإنسان، في أنها الحالة التي تضمن تأسيسا واعيا لتواصل بناء بين مختلف تجارب الحضارة، مما يتيح لها فرصا للرقي، غير أن التواصل فضلا عن ذلك يمس جانبا آخر لا يقل أهمية

من جوانب حياة الإنسان وفرص عيشه المستقبلية، وهو بلوغه منزلة التعاون، وهذه درجة من حسن تدبير العلاقة بين أطراف الجماعة الإنسانية لا تُبلغ إلا بمستوى من الوعي يستوعب التعدد كحالة طبيعية وسنة كونية، ويؤسس على هذا الوعي استثمارا لفضائل ذلك التعدد، وأهمها التفاوت بالضرورة في مستويات الإفادة من إمكانات الوجود، وتفاعل الملكات الإنسانية معها إصلاحا وابتكارا وإعمارا وإزهارا، وهو ما يؤدي إلى الحاجة المتبادلة بين مختلف المجتمعات والأمم تبعا لذلك التفاوت بينها كل في مجال، وضرورة التعاون بينها لإفادة كل منها من التجارب الرائدة، والخبرات السابقة لغيره من الأمم».